الباب الثانى

زمـــزم

همزة جبريل وسقيا رسول الله إسماعيل

obeikandl.com

زمزم
همزة سيدنا جبريل وسقيا رسول الله إسماعيل

يتكون الحرم المكى الشريف من الكعبة ومقام إبراهيم وزمزم والصفا والمروة هذه المعالم الأربع لها صلة مباشر بكل من أبى الأنبياء والرسل إبراهيم وابنه الرسول الكريم إسماعيل وزوجته سيدتنا هاجر بحضور وحى السماء سيدنا جبريل وسنلقى نظرة عبر التاريخ لنشاهد هذا الحدث العظيم وهو ظهور زمزم، تلك الآية الإلهية فى الأرض والخاصة بالمؤمنين إلى يوم الدين.

بناء أول بيت لله بين آدم وإبراهيم عليهما السلام وظهور زمزم:

سيدنا آدم وبناء بيت الله الحرام بمكة.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

[آل عمران]

عندما خلق الله سبحانه وتعالى جميع مخلوقاته من سماوات وأرض وما بينهما وما تحت الثرى جعلها جميعاً مخلوقات مسبحة إجباراً خلق الله سبحانه وتعالى الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم من ماء طين لازب صلصال من حمأ مسنون ثم سوى قامته وبنانه وصوره فأحسن صوره ونفخ فيه من روحه فكان سميعاً بصيراً تبارك الله أحسن الخالقين.

وعرض الله سبحانه وتعالى الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها آدم فجعل الله له عقلاً فى قلبه ونفساً فى صدره وألهمها الفجور وألبسها لباس التقوى وعلم آدم الأسماء كلها . وقد أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية لقبوله الأمانة فأصبح خليفة الله فى الأرض فسجدوا كلهم أجمعين إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقد أخرجه الله سبحانه وتعالى من الجنة مزءوماً مدحوراً مرجوماً ملعوناً ومن المنظرين إلى يوم الدين.

وكانت خطيئة سيدنا آدم وأمنا حواء بأنهما أطاعا الشيطان الرجيم وأكلا من الشجرة فبدأت لهما سوءاتهما وقالا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فغفر لهما وأوحى الله سبحانه وتعالى لآدم بكلمات ليتوب عليه فإنه هو التواب الرحيم.

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[البقرة].

عندما هبط أبينا آدم بصحبة زوجته حواء إلى الأرض، هبط معهما الملائكة المكرمين وإبليس اللعين وذلك فى منطقة عرفات وهو أقرب مكان من مكة المكرمة وكان البيت قواعد حمراء خلقت منذ خلق الله سبحانه وتعالى الأرض وجعل مكان البيت فى الأرض أسفل مباشرة بيت الله المعمور فى السماء حيث تطوف الملائكة الأبرار.

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ ﴾[الطور].

وقد وصفه الرسول ﷺ فى حديث الإسراء حيث قال:« ثم رفع إلىَّ البيت المعمور. فقلت يا جبريل ما هذا؟ قال هذا البيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه» [أخرجه مسلم فى صحيحه].

قال ابن عباس رضى الله عنهما: «هو بيت فى السماء السابعة حيال الكعبة أى مقابلها وحذاءها - تعمره الملائكة يصلى فيه كل يوم سبعون ألف من الملائكة ثم لا يعودون إليه »[مختصر ابن كثير].

ولذلك نجد أن هناك ارتباط بين تاريخ إنشاء بيت الله الحرام ببدأ البشرية على الأرض حيث اصطفى الله سبحانه وتعالى سيدنا آدم منذ خلقه وقبوله الأمانة

حيث قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[آل عمران].

فيكون من استقراء الأحداث أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى آدم وهو أول نبى ورسول فى البشرية إلى بناء البيت الحرام فى الأرض - أسفل مباشرة - بيت الله المعمور فى السماء على هذه الربوة الحمراء.

وبدأ آدم وحواء فى إعمار الأرض وكانت حواء تنجب ذكراً وأنثى فى البطن الواحدة وكان سيدنا آدم يزوج الذكر من هذا البطن إلى الأنثى من البطن الآخر. ويبين لنا قصة ابنى آدم قابيل وهابيل أن أول قربان قدم فى البشرية كان قربان سيدنا هابيل وهو كبش أبلج قد تقبله الله سبحانه وتعالى منه ولم يتقبل قربان أخيه قابيل، وقتل قابيل أخيه هابيل.

ومن الإشارات السابقة من أن عرفات ومكة وقصة ابنى آدم تصلنا إلى الاستنتاج السابق بأن أول بيت فى هذا المكان بنى بواسطة سيدنا آدم وفى نفس المكان قدم أول قربان فى البشرية قربان هابيل وفى نفس المكان كان الفداء الثانى لسيدنا إسماعيل عليه السلام، حيث أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم بذبح ابنه البكر إسماعيل وهو نفس المكان يتم نحر الهدى ابتغاء مرضات الله إلى يوم الدين.

وفى القرآن العظيم نجد هذا التسلسل التاريخى من سيدنا آدم وحتى سيدنا إبراهيم فى الآيات الآتية:

بعد سيدنا آدم اعتمدت البشرية على الرعى والصيد، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾[الإنسان].

حتى بعث الله سبحانه وتعالى نبى الله إدريس وهو جد سيدنا نوح وهو أول من خط بالقلم ولبس المخيط.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾[مريم].

وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ومن ذريته سيدنا نوح عليه السلام وكان رسولاً نبياً راح يدعو قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد وتركهم عبادة الأوثان لمدة تسعمائة وخمسون عاماً ولم يستجب له إلا عدد قليل جداً حتى أن أقرب الناس إليه زوجته وابنه لم يؤمنا وكانا من الكافرين ونجد فى القرآن أجمل وصف لعلاقة سيدنا نوح بقومه.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ﴿٨﴾ ﴾[نوح].

ثم قال سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴿٢٧﴾ ﴾[نوح].

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً ﴿٢٥﴾ ﴾ [نوح]

ولم لا ؟ فهم أحفاد قابيل. وكان أكبر طوفان فى التاريخ ودمرت الأصنام وكذلك بيت الله الحرام ونجى من نجى من سلالة سيدنا نوح. ومن سلالة أولاد آدم جاء قوم عاد وكانوا أيضاً جبارين سواء بأجسامهم وبطشهم وأرسل لهم الله سيدنا هود.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً .. ﴿٥٠﴾ ﴾[هود].

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[هود].

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[هود].

وتحت هذه الظروف لم يكن يسمح لسيدنا هود ببناء بيت الله الحرام.

ثم تبع قوم عاد قوم ثمود وقد أرسل الله لهم سيدنا صالح ومعه آية من آيات الله وهى ناقة خرجت من الصخر تعطيهم لبناً خالصاً لهم وعلى الرغم من هذه الآية الكبرى إلا أنهم عصوا أمر ربهم وقتلوا الناقة وبين لنا الله أيضاً أنه لا يمكن لسيدنا صالح أن يبنى بيتاً لله حيث دمر الله سبحانه وتعالى ديارهم.

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[هود].

سيدنا إبرهيم وبناء البيت الحرام:

سيدنا إبراهيم هو من سلالة سيدنا نوح وهو النبى والرسول التالى لسيدنا صالح مباشرة.

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾

[الصافات]

وأخذ سيدنا إبراهيم يتبدبر ما حوله من النجوم والشمس والقمر، ثم اهتدى بأن لهذا الكون إله وبدء فى تحطيم الأصنام، فكادوا له وأولهم عمه آذر حيث رموه فى النار وقد أنجاه الله سبحانه وتعالى من الحريق فى النار.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[الصافات].

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾[الأنبياء].

ثم أراد سيدنا إبراهيم من ربه أن يرى كيفية إحياء الله للموتى فذكر لنا الله سبحانه وتعالى تجربة علمية فريدة .

النظرية : كيف يحيى الله الموتى ؟

التجربة : خذ أربعة من الطير، ثم اذبحها وقطعها، ثم اخلط أجزائها، ثم قسمها إلى أربعة أقسام مع وضع كل قسم من المخلوط على جبل، ثم تُستدعى من سيدنا إبراهيم فتحضر هذه الطيور ساعية وليست طائرة حتى لا يقال أنها طيور أخرى.

النتيجة : أن الله سبحانه وتعالى يحيى الموتى بقدرته.

ولم يؤمن له إلا امرأته سارة وابن أخيه لوط فأمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة. فهاجر عليه السلام من بابل إلى أرض كنعان وهى الشام واستمر فى الهجرة حتى وصل إلى مصر.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾[الصافات] .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

[العنكبوت]

وعلى الرغم من مرور السنين إلا أنه لم يرزق بالذرية، حيث كانت سيدتنا سارة عجوز عقيم (لم تلد قط) وقد بلغ من العمر تسع وتسعون عاماً . وأثناء هجرته إلى مصر فقد أهداه مليكها أسيرة مصرية وكانت من أكرم الحرائر ويقال أنها أميرة مصرية تسمى هاجر. وقد أوحت سيدتنا سارة إلى زوجها سيدنا إبراهيم أن يتزوجها وما لبث أن رزقه الله بولد حليم وهو سيدنا إسماعيل.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[الصافات] .

وبعد ميلاد ابنه البكر إسماعيل أمره الله سبحانه وتعالى بهجرة أخرى بمصاحبة زوجته هاجر وابنه الرضيع بصحبة سيدنا جبريل إلى بيت الله الحرام ببكة . وكانت الرحلة طويلة وشاقة فكان لا يمر بقرية إلا أن سئل سيدنا إبراهيم سيدنا جبريل. أبهذا

أمرت يا جبريل؟ فيقول سيدنا جبريل : أمضى ، وظل هكذا حتى قدم مكة والبيت يومئذ ربوة حمراء. فقال إبراهيم لجبريل: أهاهنا أمرت أن أضعهما ؟ قال: نعم.

وأنزلهما وبنى لهما عريشاً وترك معهما جرابا من تمر وسقاء من ماء ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: أتذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له مراراً وهو لا يلتفت إليها فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا الله أبداً.

ثم رجعت وانطلق إبراهيم عائداً واتجه إلى ربه وقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴿٣٧﴾ ﴾[إبراهيم].

سيدنا إسماعيل وزمزم:

عند انتهاء التمر والماء عطشت هاجر وابنها الرضيع إسماعيل واستمر فى البكاء وهى تنظر إليه وهو يتلوى فوجدت ربوة عالية تجاهها وهى جبل قبيس (الصفا) فقامت عليها ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحد، فهبطت من هذه الربوة حتى بلغت الوادى ورفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاءت الوادى، ثم أتت جبل قيقعان (المروة) فقامت عليها فنظرت هل ترى أحد، وفعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى ﷺ :«**فلذلك سعى الناس بينهما**» صد ق رسول الله ﷺ ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبعث بعقبه حتى ظهر الماء، فجعلت سيدتنا هاجر تحوضه بيدها وتقول : زمى . . زمى . . زمى . . وهكذا . . وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهى تفور قال ابن عباس رضى الله عنهما: قال النبى ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عينا معينا**» صدق رسول الله ﷺ.

وقال لها الملك لا تخافى الضيعة فإن ها هنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً عن الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، حتى جاء أفراد من قبيلة جرهم إثر رؤيتهم للطيور المحلقة على الماء . فقالوا لسيدتنا هاجر: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم. ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا. قالوا: نعم. وأحضروا قبيلتهم وجاوروها . قال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى ﷺ: «فألقى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس».

فنزلوا بأهليهم وقعدوا تحت الدوح واعترشوا لها العرش فكانت معهم هى وابنها إسماعيل.

ولما بلغ إسماعيل مبلغ الشباب بعد محنة الذبح والفداء تزوج سيدنا إسماعيل من جرهم . حضر سيدنا إبراهيم للمرة الثالثة إلى ابنه وأخبره أن الله سبحانه وتعالى أمره أن يبنى له بيتاً وطلب منه المساعدة.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

روى البخارى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

جاء سيدنا إبراهيم ورأى ابنه إسماعيل يبرى نبلا له فى دوحة قريبة من زمزم، فلما رآه قام إليه وصنعا الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرنى أمر، قال : فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعيننى ؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتاً . وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل ابنه يناوله الحجارة. وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. فجعلا يبنيان وهما يدورا حول الكعبة. قال رسول الله ﷺ: «حتى ارتفع البناء» ، وبعد بناء بيت الله الحرام دعا سيدنا إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يريهما مناسكهما.

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾[البقرة].

وكانت من هذه المناسك الصلاة بجوار الكعبة والشرب من ماء زمزم وهى بجوار الكعبة المشرفة، ثم الطواف بين الصفا والمروة تخليداً لذكرى أم إسماعيل، حيث قالت : آلله أمرك بهذا ؟ إن الله لا يضيعنا.

وتعلم سيدنا إسماعيل عليه السلام العربية من جرهم وزوجوه امرأة من نسائهم، ثم لم تلبث أن ماتت أم إسماعيل ولها من العمر تسعون عاماً وقد أنجب سيدنا إسماعيل اثنى عشر ولداً مثل ابن أخيه يعقوب.

وجاء العرب يحجون إلى بيت الله الحرام بعدما أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم بالآذان بالحج والشرب من زمزم والطواف بالبيت العتيق والسعى بين الصفا والمروة واستمر الأمر كذلك حتى استخفت جرهم بالحرم وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها سراً وعلانية وارتكبوا من المعاصى الأمور العظام.

اندثار زمزم :

عندما زاد الظلم والفجور حول الكعبة المشرفة نضبت زمزم. وقد كان عمرو ابن الحارث بن مضاض بن عمر الجرهمى قد وعظ جرهم فى ارتكابهم الظلم فى الحرم واستخفافهم بأمر البيت وخَوفهم النقم فقال لهم :

إن مكة بلد لا تقر ظالما فالله الله قبل أن يأتيكم من يخرجكم منها خروج ذل وصغار فتمنوا أن تتركوا تطوفون البيت فلا تقدروا على ذلك. فلم يزدجروا ولم يعوا وعظه وعمد إلى غزالين كانا فى الكعبة من ذهب وأسياف قلعية فحفر لذلك كله بليل فى موضع زمزم سرًا منهم وأرسل الله ريحاً فطمست معالم زمزم. وقد سلط الله عليهم خزاعة فأخرجتهم من الحرم ووليت عليهم الكعبة.

وعن رواية أخرى عن مضاض وهو جد عمر يقول بعض المؤرخين: (تاريخ الكعبة) أن سيد من سادات مكة وهو مضاض بن عمر الجرهمى قد اشتبك فى

حرب مع أعدائه انتهت بهزيمته ، وأدرك أن أعدائه لن يلبثوا أن يخرجوه من مكة، ورأى مضاض أن يحرمهم من مورد المياه الرئيسى فى مكة، فأخفى فى بئر زمزم بعض نفائسه من ذهب ثم ردمها وأخفى علاماتها وساعدته الطبيعة على إحكام إخفائها فتكاثرت الرمال عليها حتى اندثرت، ثم هرب مضاض إلى بلاد اليمن .

وقد اضطر أهل مكة إلى البحث عن موارد جديدة للمياه فحفروا آبارا أخرى معظمها خارج مكة، حيث تعتبر المياه الجوفية هى المصدر الوحيد للمياه حتى جاء زمن ما قبل الرسول ﷺ مباشرة وهو زمن جده عبدالمطلب وهو قصى بن كلاب حيث كان يسقى الحجاج فى حياض أدم (جلد الحيوانات) وكان ينقل الماء من الآبار خارج مكة ومنها بئر ميمون الحضرمى، ثم بئر قصى وسماها (العجول) فى دار أم هانى بنت أبى طالب وهو أول سقاية احتفرت فى مكة واستمرت هذه البئر فى العطاء فى حياته وبعد مماته حتى كبر عبدمناف بن قصى وسقط فيها رجل من بنى جعبك وعطلوا العجول واندثرت . . وقد احتفرت كل قبيلة بئرا، وحفر عبدشمس بن عبدمناف (الطوى) وحفر هاشم (سجلة) وظلت ملكاً لبنى هاشم حتى أعاد عبدالمطلب حفر زمزم فمنح بئر سجلة إلى بنى نوفل بن عبد مناف ، وحفر أبيه عبدشمس (الحفر) واحتكرها لنفسه ، وحفر بنو سهم (الغمر). هذا علاوة على الآبار التى حفرت خارج مكة فى عهود زعماء قريش الأوائل منذ عهد مرة بن كعب وكلاب وأشهرها بئرى رم وخم.

ظهور زمزم على يد عبدالمطلب بن هاشم:

بعدما ضعفت خزاعة وغلبت على أمرها رجع أمر الكعبة مرة أخرى إلى أولاد سيدنا إسماعيل (بنى عبدمناف) ونظراً لموقع مكة الجغرافى المتميز ووجود الكعبة بها فقد اذدهرت تجارتها وأدرك أهل مكة ووجهاؤها ما عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج فقد قسمت مكة إلى خمسة عشر منصباً كلها فى قريش لحفظ التوازن بينهم ولكى يتوفر لمكة الهدوء والسكينة لحجاج البيت وحتى تزداد التجارة والحجيج كل عام وكانت أشرف هذه المناصب السادنة والسقاية والرفادة.

أما السدانة والحجابة فصاحبهما يخدم الكعبة وبيده مفتاحها يفتح للناس أو يغلقها وهو أبرز المناصب، ثم يليه منصب السقاية ويتولى مسئوليتها توفير المياه للحجاج فينشأ الحياض من جلد الأنعام وتوضع فى فناء الكعبة وتملأ بالمياه العذبة المنقولة من الآبار فى المزايد والقرب محمولة على الإبل وكانت السقاية فى بنى هاشم بن عبد مناف . أما الرفادة وهو المنصب الثالث فكانت قريش تجمع من وجهاؤها بعض الأموال فى موسم الحج ليقوم صاحب المنصب بإعداد الطعام للفقراء باعتبارهم ضيوف الكعبة وقد تولى قصى بن كلاب مؤسس قريش الحجابة والسقاية والرفادة ودار الندوة واللواء . وبعد وفاة قصى تولى ابنه عبدالدار هذه المهام وورثها أبناؤه عنه ولكن سرعان ما نازعهم عليها أبناء عبد مناف بن قصى وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل فقد رأوا أنهم أجدر وأقدر من أبناء عبد الدار وأدى هذا التنافس إلى انقسام قريش وكادوا يقتتلون ثم جنحوا للسلم واتفقوا على أن يتولى :

* بنو عبد مناف بن قصى السقاية والرفادة .

* بنو عبدالدار بنى قصى الحجابة واللواء ورياسة دار الندوة .

* وتولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ثم تولاها بعده أخوه المطلب وعندما شبَّ ابن أخيه هاشم ، وقد سمى عبدالمطلب - حيث رباه عمه المطلب - نازع عمه فى مناصبه ونجح فى استرداد مناصب أبيه وهى السقاية والرفادة .

وأقام لقومه ما كان أباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم وشرف قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه فأحبه قومه وعظم أمره فيهم، ولقى عبدالمطلب مشقة كبيرة فى توفير الماء اللازم للحجاج . وكانت زمزم لم تزل مدفونة لا يُعرف مكانها إلى أن أظهرها الله لعبدالمطلب جد النبى ﷺ .

يذكر الأزرقى (فى تاريخ مكة) عن مهدى بن المهدى عن عبدالله بن معاذ الصفانى عن معمر الزهرى قال: أول ما ذكر عن عبدالمطلب بن هاشم أن قريشاً خرجت فارة من أصحاب الفيل وهو غلام شاب فقال: والله لا أخرج من حرم

الله ابتغى العزة فى غيره. فجلس عند البيت وأجلت عنه قريش. فلم يزل ثابتاً فى الحرم حتى أهلك الفيل وأصحابه.

فرجعت قريش وقد عظم أمره تعظيمه محارم الله فبينما هو فى ذلك وقد ولد له أكبر بنيه هو الحارث، فأتى عبدالمطلب فى المنام فقيل له: أحفر زمزم بين الفرث والدم عند نقرة الغراب فى قرية النمل مستقبلة الأنصاب فقام عبدالمطلب فمشى حتى جلس فى المسجد الحرام ينظر ما سمى له من الآيات فنحرت بقرة بالجزورة فانفلتت من جازرها بحشاشة نفسها حتى غلبها الموت فى المسجد فى موضع زمزم فجزرت تلك البقرة مكانها حتى احتمل لحمها فأقبل غراب يهوى حتى وقع فى الفرث فبحث عن قرية النمل فقام عبدالمطلب فحفر هنالك فجاءته قريش فقالت لعبد المطلب : ما هذا الصنيع؟ إنا لم نرميك بالجهل لم تحفر فى مسجدنا؟ فقال عبدالمطلب : إنى لحافر هذا البئر ومجاهد من صدنى عنها فطفق هو وابنه الحارث وليس له ولد يومئذ غيره فسفه عليها يومئذ ناس من قريش فنازعوهما وقاتلوهما وتناهى عنه ناس من قريش لما يعلمون من عتق نسبه وصدقه واجتهاده فى دينهم يومئذ حتى إذا أمكن الحفر اشتد عليه الأذى فندر إن وفا له عشرة من الولد أن ينحر أحدهم ثم حفر حتى أدرك سيوفاً دفنت فى زمزم حين دفنت فلما رأت قريش أنه أدرك السيوف قالوا: يا عبدالمطلب أجزنا مما وجدت، فقال عبدالمطلب: هذه السيوف لبيت الله الحرام فحفر حتى أنيط الماء فى القرار ثم بحرها حتى لا تنزف ثم بنى عليها حوضاً فطفق هو وابنه ينزعان فيملآ ذلك الحوض فيشرب الحاج فيكسره الناس من حسدة قريش بالليل فيصلحه عبدالمطلب حين يصبح فلما أكثر فساده دعا عبدالمطلب ربه فرأى فى المنام فقيل له: قل اللهم إنى لا أحلها لمغتسل ولكن لشارب حل بل ثم كفينهم ، فقام عبدالمطلب . . يعنى حين اختلفت معه قريش فى المسجد - فنادى بالذى رأى ثم انصرف فلم يكن يفسد حوضه بعد ذلك أحد من قريش إلا رمى فى جسده بداء حتى تركوا حوضه وسقايته ثم تزوج عبدالمطلب النساء فولد له عشرة رهط فقال: اللهم إنى نذرت لك نحر أحدهم وأتى وأقرع بينهم فطارت القرعة على

عبدالله . . وكان أحب ولده إليه فقال عبدالمطلب: اللهم أهو أحب إليك أم مائة من الإبل ؟ ثم أقرع بينه وبين المائة من الأبل فكانت القرعة على المائة من الإبل فنحرها.

وعن رواية أخرى للإمام الأزرقى (أخبار مكة) عن نتائج حفر بئر زمزم فقال: حدثنى محمد بن يحيى عن الثقة عنده عن محمد بن إسحاق قال: فلما استقام حفرها وشرب أهل مكة والحجيج منها عفت على الآبار التى كانت بمكة قبلها لمكانها من البيت والمسجد وقد فضلت على ما سواها من المياه ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم فى الموضع الذى ضرب فيه جبريل برجله فهزمه ونبع الماء فيه.

وكان عبدالمطلب قد نذر الله عز وجل حين أمر بحفر زمزم لئن حفرها وتم له أمرها وتتام له من الولد عشرة ذكور ليذبحن أحدهم لله عز وجل فزاد الله فى شرفه وولده فولد له عشرة نفر هم:

- الحارث وأمه من بنى سواءة بن عامر.
- عبدالله والزبير وأبو طالب وأمهما المخزومية.
- العباس وضرار وأمهما النمرية.
- أبو لهب وأمه الخزاعية.
- الغيداق وأمه الغبشانية الخزاعية.
- حمزة والمقوم وأمهما الزهرية.

فلما تتام له عشرة من الولد وعظم شرفه وحفر زمزم وتم له سقيها أقرع بين ولده أيهم يذبح فخرجت القرعة على عبدالله أبى الرسول ﷺ فقام إليه ليذبحه فقامت عليه أخواله بنو مخزوم وعظماء قريش وأهل الرأى منهم فقالوا: والله لا تذبحه فإنك إن تفعل ذلك تكن سنة علينا فى أولادنا وسنة علينا فى العرب. وقالت له قريش: إن بالحجاز عرافة لها تابع فسلها ثم أنت على رأس أمرك إن

أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته. فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوا المرأة يقال لها (تخيبر) فسألوها وقص عليها عبدالمطلب خبره فقالت: ارجعوا اليوم عنى حتى يأتينى تابعى فأسأله. فرجعوا عنها حتى كان الغد ثم غدوا عليها فقالت: نعم قد جاءنى الخبر كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل. قالت: فارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها القداح وعلى صاحبكم فإن خرجت على الإبل فانحروها وإن خرجت على صاحبكم فزيدوا فى الإبل عشراً ثم اضربوا بالقداح عليها وعلى صاحبكم حتى يرضى ربكم فإذا خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فرجعوا إلى مكة فاقرع عبدالمطلب على عبدالله وعلى عشر من الإبل فخرجت القرعة على عبدالله، فقالت قريش لعبد المطلب: يا عبدالمطلب زد ربك حتى يرضى فلم يزل يزيد عشرا عشرا وتخرج القرعة على عبدالله وتقول قريش: زد ربك حتى يرضى ففعل حتى بلغ مائة من الإبل فخرجت القداح على الإبل. فقالت قريش لعبد المطلب: انحرها فقد رضى ربك وقرعت، فقال: لم أنصف إذاً ربى حتى تخرج القرعة على الإبل ثلاثاً. فأقرع عبدالمطلب على عبدالله وعلى المائة من الإبل فلما خرجت ثلاثا نحر الإبل فى بطون الأودية والشعاب وعلى رؤوس الجبال لم يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع ولم يأكل منها أحد من ولده شيئاً وجلبت لها الأعراب من حول مكة وأغارت السباع على البقايا، ثم جاء الله بالإسلام فثبتت الدية عليه. فلما انصرف عبدالمطلب ذلك اليوم إلى منزله مر بوهب بن عبدمناف بن زهره بن كلاب وهو جالس فى المسجد وهو من أشراف أهل مكة فزوج ابنته آمنة لعبدالله بن عبدالمطلب.

ورواية أخرى (أخبار مكة) ذكر على بن أبى طالب كرم الله وجهه عنه لرؤيا جده عبدالمطلب يرويها ابن إسحاق عن يزيد بن حبيب عن مرثد بن عبدالله عن عبدالله بن يزيد اليافعى قال: قال عبدالمطلب: إنى لنائم فى الحجر إذا آتانى آت فقال احفر طيبة قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عنى فرجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال: أحفر برة؟ فقال: قلت: وما برة؟ قال: ثم

ذهب عنى فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال: احفر زمزم ، قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً ولا تذم تسقى الحجيج الأعظم عند قرية النمل ، قال: فلما أبان له شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق. وقد غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبدالمطلب وليس له يومئذ ولد غيره فحفر فلما بدا لعبد المطلب الطى كبر فعرفت قريش أنه أدرك حاجته فقاموا إليه فقالوا: يا عبدالمطلب إنها بئر إسماعيل وإن لنا فيها حقًا فأشركنا معك فيها، فقال عبدالمطلب : ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم قالوا: فأنصفنا فإن غير تاركيك حتى نحاكمك فيها قال: فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم فيه ، قالوا: كاهنة بنى سعد بنى هزيم، قال: نعم وكانت بأشراف الشام فركِب عبدالمطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر قال: والأرض إذ ذاك مفاوز فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض المفاوز بين الحجاز والشام فَنَىَ ماء عبدالمطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة واستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا: إنا فى مفازة نخشى فيها على أنفسنا مثل ما أصابكم فلما رأى عبدالمطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك فأمرنا بما شئت. قال: فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه بما بكم الآن من القوة فكلما مات رجل دفعه أصحاب فى حفرته ثم واروه حى يكون آخركم رجلا واحد فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة الركب جميعاً، قالوا: سمعنا ما أردت فقام كل رجل منهم يحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً ، قال عبدالمطلب لأصحابه: والله إن القاءنا بأيدينا لعجز لا نبتغى لأنفسنا حيلة فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ارتحلوا فارتحلوا حتى إذا فرغوا ومن معهم من قريش ينظرون إليهم وما هم فاعلون تقدم عبدالمطلب إلى راحلته فركبها فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبدالمطلب وكبر أصحابه ثم نزل فشرب وشربوا واستقوا حتى ملأ أسقيتهم ، ثم دعا القبائل التى معه من قريش فقال: هلم إلى الماء فقد سقانا الله عز وجل فاشربوا واستقوا فشربوا واستقوا فقالت القبائل التى

نازعته : قد والله قضى الله عز وجل لك علينا يا عبدالمطلب والله لا نخاصمك فى زمزم أبداً الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً فرجع ورجعوا معه ولم يمضوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم.

وقال ابن اسحاق : وسمعت أيضاً من يحدث فى أمر زمزم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قيل لعبدالمطلب حين أمر بحفر زمزم : ادع بالماء الرواء غير الكدر فخرج عبدالمطلب حين قيل له ذلك إلى قريش، فقال: أتعلمون أنى قد أمرت أن أحفر زمزم؟

قالوا: فهل بين لك أين هى؟ قال: لا. قالوا فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت إن يكن حقاً من الله بين لك، وإن يكون الشيطان لم يرجع إليك فرجع عبدالمطلب إلى مضجعه فقام فأرى فقيل: احفر زمزم إن حفرتها لم تذم وهى تراث أبيك الأعظم فلما قيل له ذلك، قال: وأين هى؟ قال: قيل له: عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غدا، قال: فغدا عبدالمطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين أساف ونائلة فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر فقامت إليه قريش حين رأوا جِدَّه فقالت: والله لا ندعك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما فقال عبدالمطلب للحارث: دعنى أحفر والله لأمضين لما أمرت به فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه فلم يحفر إلا يسيرا حتى بدا له الطمى طى البئر فكبر وعرف أنه قد صدق فلما تمادى فى الحفر وجد فيها غزالين من ذهب - وهما الغزالان الذين دفنتهما جرهم حين خرجت من مكة - ووجد فيها أسيافا قلعية وأدراعاً فقالت له قريش : إن لنا معك فى هذا شركا وحقاً، قال: لا . ولكن هلم إلى أمر نصف بينى وبينكم نضرب عليها القداح ، قالوا: وكيف نصنع؟ قال: اجعل للكعبة قدحين ، ولى قدحين، ولكم قدحين، قالوا: أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش، ثم قال: اعطوها من يضرب بها عند هبل. فضُرب بالقداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة وخرج الأسودان على السيوف

والدروع لعبد المطلب وتخلف قدحا قريش فضرب عبدالمطلب الأسياف على باب الكعبة وضرب فوقه أحد الغزالين من الذهب فكان ذلك أول ذهب حليته للكعبة وجعل الغزال الآخر فى بطن الكعبة فى الجب الذى يجعل فيه ما يهدى إلى الكعبة وكان هبل صنم قريش على الجب فى بطن الكعبة وقد سرق الغزال بعد ذلك.

السقاية من بئر زمزم قبل الإسلام:

فى رواية فى كتاب شفاء الغرام. كان لعبد المطلب إبل كثيرة فإذا جاء الموسم جمعها وخلط لبنها بالعسل ووضعه فى حوض من آدم عند زمزم ويشترى الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحجاج وذلك لكسر غلظ ماء زمزم. وكانت إذا ذاك غليظة جدا. فلبث عبدالمطلب يسقى الناس حتى توفى.

ثم خلفه ابنه أبو طالب فى أمر السقاية إلا أنه استدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلا أنه لم يستطع سدادها وعند الميعاد اشترط أخوه العباس أن يدفعها له فى الموسم القادم وإن لم يستطع يترك له السقاية فقبل ذلك وجاء الموسم ولم يقض فترك السقاية له.

وقام العباس بأمر السقاية وكان للعباس كَرْم بالطائف يحمل زبيبه إلى زمزم وكان يدان أهل الطائف ويقتضى منهم الزبيب، فينبذ الزبيب بماء زمزم ويسقيه الحجاج أيام الحج وحدث هذا فى الجاهلية وفى الإسلام.

تاريخ زمزم:

يذكر الباحثون أحداث ظهور زمزم تحت قدم سيدنا إسماعيل فى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى أن إسماعيل ولد فى سنة ١٩١٠ قبل الميلاد وهو تاريخ يتفق مع ما ذهب إليه بعض العلماء العرب كالمسعودى وهو قبل المؤرخين الأجانب وكان قدوم إسماعيل إلى مكة مع والديه سنة مولده. فيكون ظهور زمزم فى نفس سنة ميلاده وهو ١٩١٠ قبل الميلاد، أما بالنسبة للتقويم الهجرى فإن ظهور زمزم كان سنة ٢٥٧٢ قبل ميلاد سيدنا محمد ﷺ تقريباً.

رأى المستشرقين والباحثين والمؤرخين فى زمزم:

لما وجد اختلاف فى الروايات الخاصة بظهور زمزم فى عهد عبدالمطلب بن هشام فلم يمر هذا الحادث دون بحث وتدقيق وتعليق من جانب المؤرخين والكتاب القدامى منهم والمحدثين.

فيقول الإمام الفاسى (شفاء الغرام): كان حفر عبدالمطلب لزمزم قبل مولد النبى ﷺ لأن فى رواية من حديث سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه أن جده عبدالمطلب حين حفر زمزم لم يكن له ولد سوى ابنه الحارث وذلك عن سيرة ابن إسحاق.

وذكر فى تاريخ الأزرقى ما يقتضى أن حفر عبدالمطلب لزمزم كان بعد عام الفيل والمعروف أن النبى ﷺ ولد فى عام الفيل على الصحيح.

وروى عن مسند البزار عن ابن عباس رضى الله عنهما حيث قال: كان أبو طالب يعالج زمزم وكان النبى ﷺ ينقل الحجارة وهو غلام وإسناد هذا الحديث ضعيف لأن حديث سيدنا على رضى الله عنه يقتضى أن النبى ﷺ وأبا طالب لم يكونا موجودين حين حفر عبدالمطلب زمزم لأنه ذكر فيه أنه لم يكن لعبد المطلب حين حفرها ابن غير الحارث.

ويعقب الدكتور على حسن الخربوطلى (تاريخ الكعبة) على ما جاء فى روايات حفر عبدالمطلب زمزم من أنه لم يصحب معه للقيام بهذا العمل الجسمانى الشاق غير ابنه الحارث وتعليل الرواة ذلك بأنه ليس له يومئذ ولد غيره. فيقول: لا يعتقد أنه اكتفى بهذا الغلام وهو مقبل على عمل خطير يحتاج لبذل مجهود كبير من حفر إلى إزالة الرمال لأنه لم يرزق سوى هذا الغلام. فقد كان عبدالمطلب زعيم مكة ورئيس قريش ويستطيع أن يحشد العشرات بل المئات من أبناء قريش ومكة للبحث عن بئر جدهم إسماعيل وخاصة أن مشكلة المياه تمس حياتهم جميعاً. ربما ظن عبدالمطلب أن هذا الهاتف من قبيل أضغاث أحلام أو هو مس من الشيطان أو الأرواح الشريرة ، فخشى عبدالمطلب أن يقع فى مكيدة أو خداع ورأى أن ينفرد هو وولده بالبحث عن

البئر حتى إذا أخفقا احتفظا بسرهما دون أن يعلم أعداؤهما بالأمر فيصبحا موضع شماتتهم وسخريتهم ، وقد يكون عبدالمطلب واثقاً من التوفيق مطمئنا إلى أنه سيكتشف بئر الأجداد التى أصبحت مكة فى مسيس الحاجة إليها . . وإن هذا الكشف سيكون له دوى كبير وفرح فى قلوب المكيين فرأى عبدالمطلب أن ينفرد بالمجد والسؤدد .

ويرى بعض المستشرقين الذين لا يعرفون أخلاق العرب وهو مرجوليوث فى كتابه «تاريخ محمد» يتعجب من تجشم عبدالمطلب هذه المتاعب والمشاق ليوفر للحجاج حاجتهم من الماء وظن أن عبدالمطلب كان يبيع هذا الماء للحجاج فيربح من بيعه ربحاً طائلاً .

رأى المؤلف :

إن الاختلاف بين رواية الأمام الأزرقى ورواية سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه هو اختلاف فى توقيت ترتيب الأحداث .

ويمكن أن ترتب الأحداث حسب ما أرى كالتالى :

عندما أسند إلى عبدالمطلب السقاية بعد نزاعه مع عمه المطلب وذاع صيته فى قريش من كرم وشهامة . . فقد جاءه المنام المتكرر بحفر زمزم ثم علامات الحفر . . وبدأ الحفر مع ابنه الوحيد الحارث وعند منازعة قريش له أثناء عملية الحفر، أقسم ليذبح ولداً من أبنائه لو أعطاه الله عشرة من الولد. وأخذ فى الحفر حتى ظهرت خبيئة عمر الجرهمى وهى الغزالين والسيوف والدروع. واستمر فى الحفر ولكنه لم يصل إلى عيون زمزم أو خروج الماء من زمزم، وفى هذا الوقت عرف مكان زمزم بدون ماء (لأن بدراستى للبئر فإن العيون على بعد ١٣ متر تقريباً) فيكون من الصعب على كل من عبدالمطلب والحارث أن يصلا إلى هذا العمق بمفردهما .

وتزوج عبدالمطلب من النساء ست وقد مَنَّ الله عليه بعشرة من الولد وذلك قبل عام الفيل حيث ذكر الأزرقى أنه لم يهرب عند غزو أبرهة الحبشى الحرم وزيادة تعظيم قريش له فى هذا الوقت. عندئذ فجر الله سبحانه وتعالى الماء من زمزم كإرهاصات

وصول النبى المنتظر وهو فى عام الفيل، هنا تذكر عبدالمطلب قسمه بأن يذبح أحد أولاده عندما يرزقه الله بعشرة أولاد. . وكان حادثة الفداء المشهورة وزواج عبدالله من سيدتنا آمنة بنت وهب وسفر عبدالله فى رحلة التجارة ولم يعد منها حيث توفى بيثرب، وقد ولد الرسول ﷺ فى عام الفيل كما هو متفق عليه فى معظم الرويات وهو أيضاً من علامات وصول النبى المنتظر . . والله أعلم.

وعن رواية مسند البراز حيث قال: كان أبو طالب يعالج زمزم وكان النبى وهو غلام ينقل الحجارة ليس ضعيفاً كما قيل حيث إن هذه الحادثة تؤكد ما توصلت إليه سابقاً أن ماء زمزم ظهر فى عام الفيل ومولد الرسول وليس قبله لأنه عند موت جد الرسول عبدالمطلب وكان يكفل محمد اليتيم فقد استلم عم الرسول الشقيق أبو طالب السقاية وكذلك كفالة ابن أخيه اليتيم وكان عمره ست سنوات وبالتالى عندما يعمر أبو طالب زمزم فيكون المنطقى أن يساعد ابن أخيه محمد وهو كفيله فى هذه العمارة وكذلك السقاية حتى نقلت السقاية إلى العباس بن عبدالمطلب كما سبق ذكره، والله أعلم.